بهذا التقليد حين كنت ألقى أمي وأختي فكانتا تضحكان مني ضحكًا يخزيني ويردني إلى لغة الريف.

وأنفقت مع خديجة عامًا وعامًا لم ألق فيهما بأسًا ولم أشْكُ فيهما عناءً، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء، وبَعُدَ فيهما الأمد بعدًا شديدًا بيني وبين أمي التي كانت تعمل في بيت موظف من موظفي الدائرة السنية، معتدل الحال متوسط العيش، ولكنه أميل إلى حياة الريف، وأحرص على تقاليد الفلاحين، وبَعُدَ فيهما الأمد بيني وبين أختي التي كانت تعمل في بيت مهندس الري، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم، ذلك الشاب الذي كان يعيش وحيدًا في دار واسعة، تحيط بها حديقة جميلة نضرة، ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفي، يحرس الدار ويُعنى بالحديقة، وإلا أختي تنظف الدار وتُعنى بمتاع الشاب، وكان الطعام يأتيه غزيرًا موفورًا من مطعم المدينة، فيصيب منه القليل، ويترك أكثره لخادميه.

وكنت أرى أختي تشبُّ مسرعة، ويستدير جسمها استدارة حسنة، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال، ولكنها ظلت كما أقبلت من ريفها المتبدي، ريفية بدوية، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب، ولا تحسن من أمور الترف شيئًا كما كنت أحسن منها أشياء.

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحقيرة القذرة، وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء، وأضيق بهذه الحجرة، وأود لو أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع، ولو استطعت أن ألقى أمي وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان، ولكن أمّنا كانت صارمة حازمة ملحة في الصرامة والحزم، لا تغير من عادتها شيئًا، فكنا نلتقي آخر الأسبوع دائمًا، وكانتا تضحكان وتنعمان بهذا اللقاء، وكنت أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعيم.

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء، لم أرَ بِشرًا ولا ابتسامًا، ولم أرَ بهجة ولا اغتباطًا، وإنما أحسست صمتًا عميقًا مريبًا، ورأيت وجهين كئيبين مظلمين، وخُيِّل إليَّ أني أرى دموعًا تضطرب في عيني أمِّنا ولا تستطيع أن تنحدر، وهممت أن أسأل عما أرى، فأعرضت أختى عنى إعراضًا، وأشارت إليَّ أمى أن لا تسألي.

وقضينا وقتًا طُويلًا ثقيلًا في هذا الهم المض الذي لم أكن أفهمه ولا أتبين له مصدرًا.

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئًا، ولم أصنع بعدها شيئًا حتى كان الصباح، صدرت هذه الجملة عن أمِّنا فوقعت في قلبى موقع الصاعقة،